كشف النقاب

عن مضاعفة العذاب في آيات الكتاب

إعداد

د / خالد بن عون العنزي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

في جامعة طيبة بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمـــــة

الحمدلله رب العالمين، الرحيم الرؤوف، المنتقم الجبار، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، أرسله الله رحمة للعالمين، وبعثه بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

أما بعد: فإن الله ﷻ هو العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، يجازي المسيء على قدر إساءته ولا يظلم ربك أحداً.

وقد أخبر سبحانه في كتابه العظيم أنَّ هناك ذنوباً ضاعف عليها العذاب، لزيادة جرمها، وتعدي ضررها، وزاد العقوبة على فاعليها؛ لأنهم صاروا دعاة إلى الضلالة، وأئمة في الغواية.

وقد أردتُ في هذا البحث جمع تلك الآيات التي دلت على مضاعفة العذاب، وترتيبها في مباحث حسب دلالاتها، وتفسيرها تفسيراً موضوعياً، ودراسة ما تضمنته من معان و مسائل وفوائد.

وقد أسميت هذا البحث: «**كشف النقاب عن مضاعفة العذاب في آيات الكتاب**».

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في عدة جوانب، من أهمها:

١- بيان عدل المولى ﷻ في جزائه للسيئة بمثلها، ومضاعفة عقوبة بعض السيئات؛ لعِظم جرمها وتعدي ضررها.

٢- بيان الأعمال التي خصصت بمضاعفة العذاب إظهاراً لخطرها وفداحة جرمها.

٣- التحذير من الأعمال التي يُضاعَف عليها العذاب، لعِظم ذنبها وضررها على الغير.

*****

خطة البحث

يتكون هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

على النحو التالي:

المقدمة:

وتتضمن:

أهمية البحث.

خطة البحث.

التمهيد:

في بيان معنى: «مضاعفة العذاب».

ويشتمل على ما يلي:

أولاً: تعريف المضاعفة.

ثانياً: تعريف العذاب.

المبحث الأول: مضاعفة العذاب لمن جمع بين الشرك والقتل والزنا.

المبحث الثاني: مضاعفة العذاب على الأتباع والمتبوعين .

المبحث الثالث: مضاعفة العذاب للمنافقين.

المبحث الرابع: مضاعفة العذاب للصادين عن سبيل الله.

المبحث الخامس: الوعيد بمضاعفة العذاب.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الوعيد بمضاعفة العذاب للنبي ﷺ.

المطلب الثاني: الوعيد بمضاعفة العذاب لأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

الخاتمة:

وتتضمن ما يلي:

نتائج البحث.

التوصيات.

الفهارس:

وتتضمن:

فهرس المراجع.

فهرس الموضوعات.

هذا والله أسأل أن ينفع بهذا البحث، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. خالد بن عون العنزي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

في قسم الدراسات القرآنية

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

في جامعة طيبة بالمدينة المنورة

التمهيد

بيان معنى مضاعفة العذاب

أولاً: تعريف المضاعفة:

تعريف الضِّعف:

الضِّعف لغةً: بكسر الضاد: يستعمل اسم مصدر ضعّف وضاعف، فهو اسم التضعيف والمضاعفة، ويستعمل اسماً بمعنى الشيء المضاعف.

وأما تعريف الضعف اصطلاحاً: فهو مثل قدرين متساويين، ومماثل عدد ما.

قال الرازي: «الضعف عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله».

والمضاعفة : هي الزيادة على أصل الشيء حتى يبلغ مثلين أو أكثر[1].

ثانياً: تعريف العذاب:

العذاب: هو النكال والعقوبة، وكل مؤلم للنفس إذا كان جزاء على سوء.

واشتقاقه من عذب الشيء إذا استمر وجرى، فالألم يستمر في النفس، ويتغلغل فيها.

قال العسكري: الْعَذَاب أخصّ من الْأَلَم، وذلكَ أَنَّ الْعَذَاب هو الْأَلَم المستمر يكون مستمراً وَغير مُسْتَمر، أَلا ترى أَن قَرْصة البعوض أَلَم وَلَيْسَ بِعَذَاب، فَإِن اسْتمرّ ذَلِك قلت: عذبني البعوض اللَّيْلَة، فَكل عَذَاب أَلَم وَلَيْسَ كل أَلَم عذَاباً، وأصل الْكَلِمَة «الِاسْتِمْرَار» وَمِنْه يُقَال: «مَاء عذب» لاستمرائه فِي الْحلق.

وقيل: العذاب أصله عند العرب الضرب، ثم استعمل في عقوبة مؤلمة، واستعير للأمور الشاقة كالسفر وغيره.

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٨/٢١)، وتهذيب اللغة للأزهري (٣٠٤/١)، ولسان العرب لابن منظور (٢٠٥/٩)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩٢/٢٣).

وكلُّ عَذَاب فِي الْقُرْآن فَهُوَ التعذيب إِلَّا: ﴿**وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [النور:٢] فَإِن المُرَاد الضَّرْب[١].

المبحث الأول

مضاعفة العذاب لمن جَمَعَ بين الشِّرك والقَتل والزنا

ذكر اللهُ جلَّ وعَلا في آخر سورة الفرقان صفات أناس سمَّاهم سبحانه «عِبَادُ الرَّحمن»[٢] وكان من تلك الصفات الجليلة والمناقب العظيمة التي وصف الله بها عباد الرحمن هؤلاء أنهم يجتنبون ثلاث صفات منكرة وفاسدة، وهي:

١- الشرك بالله تعالى.

٢- قتل النفس المحرمة بغير حق.

٣- الزنا.

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ**﴾ [الفرقان: ٦٨].

وإنها –والله– لصفات منكَرة وأفعال قبيحة وذنوب عظيمة، ولذلك يقول عبدالله بن مسعود ﷺ «قلت يا رسول الله أيُّ الذنب أكبر؟ قال: **أن تدعوَ لله نِدًّا وهو خَلَقَك**. قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: **أن تقتل ولدك خِيفةَ أن يطْعَم معَك**. قلت: ثم أيّ؟ قال: **أن تُزانيَ حليلةَ جارك**» فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا**

(١) انظر: الكليات للكفوي (ص ٥٩٧)، ومجمل اللغة لابن فارس (ص ٦٥٧)، والصحاح للجوهري (١٧٨/١)، والتوقيف على مهمات التعاريف (ص ٢٣٩)، والمعجم الوسيط (٥٨٩/٢).

(٢) الآية (٣٦) وما بعدها.

آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى ﴿أَثَامَاً﴾ [الفرقان: ٦٨][(١)].

قال القرطبي: «دلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق، ثم الزنى ولهذا ثبت في حد الزنى القتل لمن كان محصناً أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن»[(٢)].

- **مضاعفة العذاب لمن جمع بين هذه الخصال:**

لما أثنى الله جل وعلا على هؤلاء العباد لمجافاتهم لهذه الأفعال والخصال المنكرة ذكر سبحانه جزاء وعقوبة مَن جمع بين هذه الخصال وهو مضاعفة العذاب له، وخلوده فيه، فقال – عزَّ من قائل –

﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانَاً** ﴾ [الفرقان:٦٨–٦٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذا الوعيد بتمامه على الثلاث، ولكل عمل قسط منه، فلو أشرك ولم يقتل ولم يزن كان عذابه دون ذلك، ولو زنى وقتل ولم يشرك

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (١٦٢٦/٤) رقم (٤٢٠٧) كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿**فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ وفي (١٧٨٤/٤) رقم (٤٤٨٣) كتاب التفسير، باب قوله ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً** ﴾ [الفرقان: ٦٨] وفي (٢٢٣٦/٥) رقم (٥٦٥٥) كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، وفي (٢٥١٧/٦) رقم (٦٤٦٨) كتاب الديات، وقول الله تعالى ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ** ﴾ [النساء: ٩٣]، وفي (٢٧٣٤/٦) رقم (٧٠٨٢) كتاب التوحيد، باب ما ذكر في خلق أفعال العباد وأكسابهم، وفي (٢٧٣٩/٦) رقم (٧٠٩٤) كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ [المائدة: ٦٧]. وأخرجه مسلم في صحيحه (٩٠/١) رقم (٨٦) كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها عنده.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧٦/١٣).

كان له من هذا العذاب نصيب»[1].

قال ابن عاشور: «والإشارة بـــ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما ذكر من الكبائر، والمتبادر من الإشارة أنها إلى المجموع، أي: من يفعل مجموع الثلاث، ويُعلم أن جزاء من يفعل بعضها ويترك بعضاً عدا الإشراك دون جزاء من يفعل جميعها، وأنَّ البعض أيضاً مراتب، وليس المراد من يفعل كل واحدة مما ذكر يلقَ آثاماً لأن لُقِيَّ الآثام بُيّن هنا بمضاعفة العذاب والخلودِ فيه»[2].

هذا ما يلقاه مَن جمع بين هذه الثلاث الموبقات: «الأثام» أي: العقوبة المفسّرة بمضاعفة العذاب.

قال ابن جرير: «ومن يأت هذه الأفعال، فدعا مع الله إلهاً آخر، وقتل النفس التي حرّم الله بغير الحق، وزنى ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ يقول: يلق من عقاب الله عقوبة ونكالاً كما وصفه ربنا جلّ ثناؤه، وهو أنه ﴿**وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً**﴾ [الفرقان:٦٩]»[3].

- **معنى مضاعفة العذاب:**

قال ابن عاشور: « فأما مضاعفة العذاب فهي أن يعذّب على كل جُرم مما ذكر عذاباً مناسباً ولا يكتفَى بالعذاب الأكبر عن أكبر الجرائم وهو الشرك، تنبيهاً على أن الشرك لا ينجي صاحبه من تبعة ما يقترفه من الجرائم والمفاسد، وذلك لأن دعوة الإسلام للناس جاءت بالإقلاع عن الشرك وعن المفاسد كلها»[4].

(١) الإيمان لابن تيمية (٦٢/١).
(٢) التحرير والتنوير (٧٤/١٩).
(٣) تفسير الطبري (٤٠/١٩).
(٤) التحرير والتنوير (٧٤/١٩).

وسبب مضاعفة العذاب: هو جمعه بين الشرك بالله وقتل النفس والزنا؛ فيضاعف العذاب لما تضاعفت الذنوب والآثام.

قال الرازي: «سبب تضعيف العذاب أن المشرك إذا ارتكب المعاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه»(١).

- **الخلود في العذاب المضاعف:**

ومما يزيد هذا العذاب المضاعف إيلاماً رغم ألمه، وشدةً رغم شدته هو أنه عذاب خالد لا ينتهي ونكال دائم لا ينقطع، كما قال تعالى: ﴿**وَيَخْلُدْ فِيهِ**﴾ [الفرقان: ٦٩] أي: في ذلك العذاب المضاعف ﴿**مُهَاناً**﴾ [الفرقان: ٦٩] ذليلاً مستحقراً جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني، وهكذا اجتمع على هذا الفاجرالعذاب المضاعف، والخلود فيه، فياله من خزي ومهانة، وأعظم به من ذل وندامة(٢).

والوعيد بالخلود يشمل من ارتكب هذه الموبقات الثلاث جميعها، والوعيد بالعذاب على كل فعلة من هذه الأفعال المنكرة، ولكن الخلود لا يشمل القاتل والزاني، إذ أن صاحب المعصية مهما كبرت لا يخلد في النار وإن دخلها بل مآله إلى الجنة إن لم يعف الله عنه لأول وهلة كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة.

قال السعدي: « فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة لكونها إما شرك وإما من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل والزاني في العذاب فإنه لا يتناوله

(١) تفسير الرازي (٩٧/٢٤)، وانظر: الكشاف للزمخشري (٣٠٠/٣)، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٧٢/١٤).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٢٣٠/٦)، وروح المعاني للألوسي (٤٨/١٩).

الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونصَّ اللهُ تعالى على هذه الثلاثة لأنها من أكبر الكبائر، فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض»[1].

- **استثناء التائبين:**

إنَّ الله الرحيم الرحمن سبحانه لا يزال يفتح للمجرمين والمفسدين باب التوبة والأوبة، فهو الذي سبقت رحمته غضبه، وهو الغفار التواب، وهاهو جل وعلا يفتح باب الرجعة والتوبه لمن توعدهم بالعذاب المضاعف آنفاً، فيقول جل شأنه:

﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً** ﴾ [الفرقان: ٧٠ – ٧١].

وإبدال السيئات حسنات: أنه يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات: الإيمان، والطاعة، والتقوى.

وقيل: يبدِّلهم بالشرك إيماناً، وبقتل المسلمين: قتل المشركين، وبالزنا: عفة وإحصاناً[2].

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيعرض عليه صغارها وينحى عنه كبارها، فيقال: عملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا، وهو مقرٌّ ليس ينكر، وهو مُشْفِقٌ من

(١) تفسير السعدي (٥٨٧/١)، وانظر: العواصم من القواصم لابن الوزير (٧٣/٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٦/١٩)، وبحر العلوم للسمرقندي (٥٤٦/٢)، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢٦٨/٣)، وطريق الهجرتين لابن القيم (٣٠٣/١).

الكبار أن تجيء، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة»[1].

وورد عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الفرقان: ٦٨] اشتد ذلك على المسلمين فقالوا: ما منا أحد إلا أشرك، وقتل، وزنى، فأنزل الله ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر:٥٣]

يقول لهؤلاء الذين أصابوا هذا في الشرك، ثم نزلت بعده: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ [الفرقان:٧٠] فأبدلهم الله بالكفر الإسلام، وبالمعصية الطاعة، وبالانكار المعرفة، وبالجهالة العلم»[2].

ثم قال تعالى ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً** ﴾ [الفرقان:٧١] وفي هذا إشارة إلى التوبة الصادقة، أي: ومن تاب عن المعاصي تركاً تاماً، وداوم على العمل الصالح ليستدرك ما فاته منه، فإنه في هذه الحالة يكون قد تاب ورجع إلى الله تعالى رجوعاً صحيحاً مقبولاً منه سبحانه بحيث يترتب عليه محو العقاب وإثبات الثواب[3].

*****

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٧/١) رقم (١٩٠) كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، وأخرجه كذلك: وكيع في الزهد (٤١٦/١)، وهناد بن السري في الزهد (١٥٥/١) رقم (٢١١)، وأبو عوانة في مسنده (١٤٦/١) رقم (٤٣٥/٤٣٤).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٧٨/٦) ونسبه إلى ابن مردويه.

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري (٢٩٥/٣)، وتفسير الرازي (٤٨٥/٢٤).

المبحث الثاني

مضاعفة العذاب على الأتباع والمتبوعين

في هذا المبحث سنتعرف على حال طبقتين من الناس، طبقة ضالة في نفسها مضلة لغيرها، وطبقة ضالة بسبب اتباعها الطبقة الأولى وانخداعها بها، الأولى هم سادة الضلال ورؤوس الغواية، والثانية هم التابعون لأولئك الأسياد، المقلدون لأولئك الرؤساء.

وكل من الأتباع والمتبوعين يجتمعون يوم القيامة في صعيد ومكان واحد، عندها يعرف التابعون المقلدون مقدار الغبن الذي وقعوا فيه، والخسارة التي أصابتهم، والمنقلب الفاضح والمخزي الذي آلوا إليه بسبب إضلال متبوعيهم وسادتهم ورؤسائهم لهم، فلا يجدوا حيلة – حينئذ – بعد أن أيقنوا أن العذاب نازل بهم إلا دعاء الله جل وعلا على من كان سبباً في ضلالهم بأن يضاعف لهم العذاب، ضعف لضلالهم، وضعف لإضلالهم.

يصور الله تعالى هذا المشهد العجيب، ويصف حال هؤلاء الأتباع والمتبوعين وهم في النار، فيقول تعالى: ﴿**قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ**﴾ [الأعراف: ٣٨]

أي: قال الله تعالى لأولئك المكذبين: ادخلوا فى ضمن أمم من الجن والإنس قد سبقتكم فى الكفر، وشاركتكم فى الضلالة، كلما دخلت أمة من أمم الكفر لعنت أختها فى الدين والملة، فالأمة المتبوعة تلعن الأمة التابعة؛ لأنها زادتها ضلالاً، والأمة التابعة تلعن الأمة المتبوعة؛ لأنها كانت سبباً فى عذابها، حتى إذا ما اجتمعوا جميعاً فى النار الرؤساء والأتباع، والأغنياء والفقراء، قالت أخراهم دخولاً أو منزلة وهم

الأتباع لأولاهم دخولاً أو منزلة وهم الزعماء والمتبوعون: ﴿**رَبَّنَا هَـــؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ**﴾ [الأعراف: ٣٨][1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذبين بآياته: ﴿ **ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ** ﴾ [الأعراف:٣٨] أي: من أشكالكم وعلى صفاتكم، ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم**﴾ [الأعراف:٣٨] أي: من الأمم السالفة الكافرة، ﴿ **مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ**﴾ [الأعراف:٣٨] يحتمل أن يكون بدلا من قوله: ﴿**فِي أُمَمٍ**﴾ [الأعراف: ٣٨] ويحتمل أن يكون ﴿**فِي أُمَمٍ**﴾ [الأعراف:٣٨] أي: مع أمم. وقوله: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا** ﴾ [الأعراف: ٣] كما قال الخليل، عليه السلام: ﴿**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً**﴾ [العنكبوت:٢٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ *وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ** ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً**﴾ [الأعراف:٣٨] أي: اجتمعوا فيها كلهم، ﴿**قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ** ﴾ [الأعراف:٣٨] أي: أخراهم دخولا -وهم الأتباع - لأولاهم -وهم المتبوعون -لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿**رَبَّنَا هَـــؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ**﴾ [الأعراف:٣٨] أي: أضعف عليهم العقوبة»[2].

*****

ومثل هذا الموقف يذكره الله عز وجل في آيات أخرى عن هؤلاء التابعين،

(١) انظر: تفسير الطبري (٤١٦/١٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢١٣/٢).

حيث حكى اللهُ عنهم أنهم يقولون:

﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا*رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً**﴾ [الأحزاب:٦٧ – ٦٨].

إنه تصريح من هؤلاء التابعين بإخلاصهم في طاعة أسيادهم وزعمائهم وكبرائهم تلك الطاعة التي أردتهم فأصبحوا عمياناً من الضلالة والغواية، حتى إذا اجتمعوا في يوم المعاد وعرفوا مصيرهم المؤلم حنقوا على أولئك المتبعين، فأخذوا يدعون عليهم بالعذاب المضاعف ضعفين، ضعف لضلالهم، وضعف لإضلالهم.

قال الزمخشري: «يعترفون، ويستغيثون، ويتمنون، ولا ينفعهم شيء من ذلك»[(١)].

وقال ابن عاشور: «وجملة ﴿**رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**﴾ [الأحزاب:٦٧–٦٨] خبر مستعمل في الشكاية والتذمر، وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم وكبرائهم. فالمقصود الإفضاء إلى جملة ﴿**رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ**﴾ [الأحزاب: ٦٧ – ٦٨]، ومقصودهم من هذا الخبر أيضاً الاعتذار والتنصل من تَبِعة ضلالهم بأنهم مغرورون مخدوعون، وهذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم الله به من الحقيقة إذ قالوا: ﴿**رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا**﴾ [الأحزاب:٦٧– ٦٨] فيتجه عليهم أن يقال لهم: لماذا أطعتموهم حتى يغروكم؟.

وهذا شأن الدهماء أن يسوِّدوا عليهم من يُعجبون بأضغاث أحلامه، ويُغَرُّون بمعسول كلامه، ويسيرون على وقع أقدامه، حتى إذا اجتنوا ثمار أكمامه، وذاقوا مراراة طعمه وحرارة أُوامه، عادوا عليه باللائمة وهم الأحقاء بملامه»[(٢)].

---

(١) الكشاف (٥٧٢/٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١١٨/٢٢).

وقال أبو السعود: «وتصديرُ الدُّعاءِ بالنِّداءِ مكرَّراً للمبالغةِ في الجؤارِ واستدعاءِ الإجابةِ»[1].

يعني – رحمه الله – تكرار الدعاء في قولهم ﴿**رَبَّنَا**﴾ أي: يا ربنا».

*****

وثمة موضع ثالث يذكره القرآن بين هؤلاء الأتباع والمتبوعين وهو قوله تعالى:

﴿**هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ**﴾ [ص: ٥٩ – ٦١].

هذا مشهد الأتباع والمتبوعين وهم في النار، يشتم بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً،حيث يقول السادة المتبوعون بعضهم لبعض وهم يرون الأتباع يلقون معهم في النار، أو تقول لهم الملائكة تقريعاً وتوبيخاً:

﴿ **هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ**﴾ [ص: ٥٩]: يقولون هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، أي: دخل النار في صحبتكم ، والاقتحام: ركوب الشدة والدخول فيها.

فيرد عليهم الأتباع: ﴿**بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ** ﴾ [ص: ٦٠] أي: أنتمُ قدَّمتم العذابَ أو الصِّلِيَّ لنا وأوقعتُمونا فيه بتقديمِ ما يُؤدِّي إليه من العقائدِ الزَّائغةِ والأعمالِ السَّيئةِ وتزيينها في أَعيننا وإغرائنا عليها لا أنَّنا باشرنَاها من تلقاءِ أنفسنا فبئسَ المقرُّ جهنَّم[2].

وهنا دعا الأتباع بمضاعفة العذاب على رؤسائهم وسادتهم الذين كانوا سببا في

(١) تفسير أبي السعود (١١٧/٧).

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (١٠٢/٤)، وتفسير أبي السعود (٢٣٣/٧).

كفرهم ودخولهم النار قائلين: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ**﴾ [ص: ٦١].

أي: يا ربنا ضاعف لهم العذاب مرتين لأنهم هم الذين قدموه لنا يوم كانوا يدعوننا إلى الشرك والباطل ويحضوننا عليه.

قال ابن جرير: «هذا قول الفوج المقتحم على الطاغين، وهم كانوا أتباع الطاغين في الدنيا، يقول جل ثناؤه: وقال الأتباع: ﴿**رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا**﴾ يعنون: من قدَّم لهم في الدنيا بدعائهم إلى العمل الذي يوجب لهم النار التي وردوها، وسكنى المنزل الذي سكنوه منها، ويعنون بقولهم: ﴿**هَذَا**﴾: العذاب الذي وردناه ﴿**فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ**﴾ يقولون: فأضعف له العذاب في النار على العذاب الذي هو فيه فيها، وهذا أيضاً من دعاء الأتباع للمتبوعين»[(١)].

*****

الجواب الإلهي بمضاعفة العذاب للكل:

بعد هذا الخصام بين الأتباع والمتبوعين، وبعد تلك الدعوات التي أطلقها –بحنق وغيظ– الأتباع على رؤسائهم بمضاعفة الله العذاب لهم حيث قالوا: ﴿ **رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ** ﴾ [الأعراف: ٣٨]، ﴿ **رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٦٨]، ﴿**رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ**﴾ [ص:٦١].

بعد ذلك جاء الجواب من الملك الديان، وقضي الأمر ممن بيده الأمر –سبحانه– ، وجاء الحكم العدل ممن لايظلم الناس شيئاً، وهو أن العذاب يضاعف للكل، ويستحقه الأتباع والمتبوعون، السادة والمسودون، الرؤساء والمرؤوسون، الكبراء

(١) تفسير الطبري (١٨٠/٢٣).

والصغار. قال تعالى: ﴿**قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:٣٨].

أما السادة والرؤساء والكبراء المتبوعون فيضاعف لهم العذاب لضلالهم وإضلالهم، وأما المرؤوسون الأتباع فيضاعف لهم العذاب لضلالهم، وتقليدهم لسادتهم، وطاعتهم العمياء لهم.

ولكنكم لا تعلمون ما لكم وما لكل فريق من العذاب[1].

*****

(١) انظر: تفسير البغوي (١٩١/٢)، وزاد المسير لابن الجوزي (١١٨/٢)، وتفسير البيضاوي (١٩/٣)، ونظم الدرر للبقاعي (٣٩٨/٧).

المبحث الثالث

مضاعفة العذاب للمنافقين

المنافقون هم أخطر أعداء الإسلام على الإطلاق، وخطورتهم تكمن في إظهارهم للإسلام وإبطانهم الكفر، وكيدهم للمسلمين واستثمارهم أدنى فرصة تلوح لهم للكيد لهذا الدين، والانقضاض على أهل الإسلام.

ومن أجل ذلك حذر منهم القرآن العظيم أيما تحذير في آيات كثيرة، وسمَّاهم العدو في قوله تعالى في سورة المنافقين ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾ [المنافقون: ٤] وجاءت الآيات القرآنية تفضح مخططاتهم، وتكشف كيدهم، وتجلِّي مكرهم، بل خصّصت سور قرآنية لكشفهم وفضحهم ومنها سورة التوبة التي تسمى بالفاضحة، لأنها فضحت القوم، وأبانت حقيقتهم، وأوضحت خطرهم على الإسلام والمسلمين.

ومن الآيات الفاضحة في تلك السورة الفاضحة قول الله تعالى ﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ** ﴾ [التوبة: ١٠١].

حيث ذكر الله عز وجل في هذه الآية صنفين من المنافقين:

الأول: الأعراب الذين حول المدينة، وأنَّ فيهم منافقين، وكان هؤلاء الأعراب قد أسلموا واتبعوا النبي ﷺ وأطاعوه مثل قبائل جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، وغيرها، فأعلم اللهُ نبيَه ﷺ أن في هؤلاء منافقين، لئلا يغتر بكل من يظهر له الطاعة والمودة.

والصنف الثاني: هم المنافقون من أهل المدينة، حيث أعلم الله نبيه أن المدينة وإن كان أهلها من الأنصار قد آمنوا به ونصروه وأطاعوه إلا أن فيهم

بقية مردوا على النفاق، أي: مرنوا عليه، واستمروا فيه ولم يتوبوا منه، بل ثبتوا عليه فهو متأصل فيهم، وهم عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه(١).

قال ابن عطية في معنى «مردوا»: « والظاهر من معنى اللفظ أن التمرد في الشئ أو المرود عليه إنما هو اللجاج والاستهتار به والعتو على الزاجر وركوب الرأس في ذلك، وهو مستعمل في الشر لا في الخير، ومن ذلك قولهم: مارد ومريد»(٢).

استئثار الله عز وجل بعلمه بهؤلاء المنافقين:

دلَّ قوله تعالى ﴿**لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**﴾ [التوبة:١٠١] على أن هؤلاء العصبة من المنافقين قد استأثر الله عز وجل بعلمهم ولم يطلع عليهم رسوله ﷺ كما أطلعه على كثير من المنافقين، وإنما أعلمه بوجودهم على الإجمال لئلا يغتر بهم المسلمون(٣).

وقيل: إن هذه الآية كقوله تعالى ﴿**لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٠] والمعنى: أنهم تمردوا في حرفة النفاق، فصاروا لها حاذقين حتى بلغ الأمر بسبب إتقانهم لأساليب النفاق إلى خفاء ذلك على النبي ﷺ(٤).

قال الأمين الشنقيطي: « وذكر الله تعالى نظير ذلك عن نوح في قوله عنه ﴿**قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الشعراء:١١٢] وذكر نظيره عن شعيب عليهم كلهم صلوات الله وسلامه في قوله: ﴿**بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم**

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٤٠/١٤)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩/١١).
(٢) المحرر الوجيز (٧٥/٣).
(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠/١١).
(٤) انظر: تفسير الرازي (١٣١/١٦).

بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦] »[١].

مضاعفة العذاب لهؤلاء المنافقين:

عاقب اللهُ هؤلاء المنافقين على نفاقهم بمضاعفة العذاب لهم فقال تعالى: ﴿**سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ**﴾ [التوبة:١٠١] أي: في الآخرة ﴿**إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾ [التوبة:١٠١] حيث يقيمون في الدرك الأسفل من النار كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ [النساء: ١٤٥].

هذا وقد ذكر عدد من المفسرين وجوهاً عديدة في تفسير تعذيبهم مرتين:

فقيل: الأمراض في الدنيا، والعذاب في الآخرة. ونسب هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: الفضيحة في الدنيا، وعذاب القبر، ونسب هذا إلى أنس بن مالك ﷺ.

وقيل: في الدنيا بالقتل والسبي، وعذاب القبر، ونسب هذا القول إلى مجاهد.

وقيل: بأخذ الزكاة من أموالهم، وعذاب القبر، ونسب هذا إلى الحسن البصري.

وقيل: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسنة، ثم عذاب القبر. ونسب هذا إلى محمد بن إسحاق.

وقيل: أحد العذابين ضرب الملائكة الوجوه والأدبار، والآخر عند البعث.

وقيل غير ذلك من الوجوه[٢].

والظاهر أن المقصود من تعذيبهم مرتين في الآية هو مضاعفة العذاب لهم.

---

(١) أضواء البيان (١٤٨/٢).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٤١/٨)، وتفسير الرازي (١٣١/١٦).

قال القرطبي بعد أن أورد عدداً من الأقوال السابقة: « والغرض من الآية اتباع العذاب، أو تضعيف العذاب عليهم»[١].

وقال أبو السعود: « ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه، ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير، كما في قوله تعالى ﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**﴾ [الملك: ٤] أي: كرة بعد كرة»[٢].

وقال ابن عاشور: « والظاهر عندي أن العدد مستعمل لمجرد قصد التكرير المفيد للتأكيد، كقوله تعالى ﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**﴾ [الملك:٤] أي: تأمل تأملاً متكرراً، ومنه قول العرب: لبيك وسعديك، فاسم التثنية نائب مناب إعادة اللفظ، والمعنى: سنعذبهم عذاباً شديداً متكرراً مضاعفاً، كقوله تعالى ﴿**يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**﴾ [الأحزاب:٣٠] وهذا التكرر تختلف أعداده باختلاف أحوال المنافقين واختلاف أزمان عذابهم »[٣].

*****

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٤١/٨).
(٢) تفسير أبي السعود (٩٨/٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٠/١١).

المبحث الرابع

مضاعفة العذاب للصادِّين عن سبيل اللَّه

الذين يصدون الناس عن سبيل الله، ولا يكتفون بضلالهم في أنفسهم بل يدعون غيرهم إلى الضلالة والغواية، هؤلاء زاد الله عقوبتهم وضاعف عذابهم لما تضاعف ضلالهم وزاد إجرامهم وتعدى ضررهم.

وفيهم يقول الله تعالى:

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ ممَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَـئكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَـئكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ * أُوْلَـئكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ** ﴾ [هود: ١٨ – ٢٢]

يبيِّنُ اللهُ تعالى في هذه الآيات أنَّ أشدَّ الظلم وأعظمه، وأظلم الظالمين وأطغاهم هم الذين يفترون الكذب على الله، ولا يكتفون بضلالهم في أنفسهم ، بل يسعون في إضلال غيرهم وصدهم عن سبيل الهدى ، فهم قد جمعوا بين ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم(١).

وقد بيَّن اللهُ ﷻ مصير هؤلاء الظلمة عندما يُعرَضون على الله يوم القيامة بقوله: ﴿ **أُوْلَـئكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى**

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٤٤٣/٢)، وتفسيرالسعدي (٣٧٩/١).

رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّه عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١].

إنه مَوقف الذُّلّ وَالهَوَان وَالخزي، وَالفَضيحَة العَظيمَة.

وَجُملَةُ: ﴿ **أَلاَ لَعْنَةُ اللّه عَلَى الظَّالِمِينَ﴾** مِنْ بَقِيَّةِ قَوْلِ الْأَشْهَادِ.

قال ابن عاشور: « وَافْتِتَاحُهَا بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ يُنَاسِبُ مَقَامَ التَّشْهِيرِ، وَالْخَبَرُ مُسْتَعْمَلٌ فِي الدُّعَاءِ خِزْيًا وَتَحْقِيرًا ».

والأشهاد: جمع شاهد، أو جمع شهيد.

والمراد بهم–على الراجح– جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أقوالهم وأعمالهم، ومن الأنبياء والمؤمنين(١).

قال الرازي : «ثمَّ إنَّه تَعَالَى بَيَّنَ وَعيدَ هَؤلَاء بقَوْله: ﴿**أُولَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾** [هود: ١٨] [إلى آخر الآية] وَمَا وَصفَهُم بذَلكَ لأَنَّهُم مُختَصُّونَ بذَلكَ العَرض؛ لأَنَّ العَرضَ عَامٌّ في كُلّ العبَاد كَمَا قال: ﴿**وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً﴾** [الكَهف: ٤٨] وَإنَّمَا أَرَادَ به أَنَّهُم يُعرَضُونَ فَيُفتَضَحُونَ بأَن يَقُولَ الأَشهَادُ عندَ عَرضهم هؤُلاء الَّذينَ كَذَبُوا عَلى رَبّهم فَحَصَلَ لَهُم منَ الخزي وَالنَّكَال مَا لَا مَزيدَ عَلَيه»(٢).

وقال ابن عاشور: «وَالْمَقْصُودُ مِنْ إِعْلَانِ هَذِهِ الصِّفَةِ التَّشْهِيرُ وَالْخِزْيُ لَا إِثْبَاتُ كَذِبِهِمْ؛ لِأَنَّ إِثْبَاتَ ذَلِكَ حَاصِلٌ فِي صُحُفِ أَعْمَالِهِمْ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُسْنَدْ الْعَرْضُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ وَأُسْنِدَ إِلَى ذَوَاتِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿**أُولَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾** [هود: ١٨] ».

وَقدأخرج الْبُخَارِيّ وَمُسلم في صحيحيهما عَن ابْن عمر رَضِي الله عَنْهُمَا قال: سَمعت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِن الله يدني الْمُؤمن حَتَّى يضع عَلَيْهِ كنفه ويستره من النَّاس ويقرره بذنوبه وَيَقُول لَهُ: أتعرف ذَنْب كَذَا أتعرف ذَنْب كَذَا فَيَقُول: أَي رب

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (٤٣٣/٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣٣/١٢)، والتفسير المنير للزحيلي (٤٥/١٢).

(٢) تفسير الرازي (٣٣٢/١٧).

أعرف. حَتَّى إِذا قَرَّرَهُ بذنوبه وَرَأى فِي نَفسه أَنه قد هلك قَالَ: فَإِنِّي قد سترتها عَلَيْك فِي الدُّنْيَا وَأَنا أغفرها لَك الْيَوْم، ثمَّ يُعْطى كتاب حَسَنَاته. وَأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد ﴿**هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [هود: ١٨]»[(١)].

وبعد أن وصف أولئك القوم بالظلم عموماً أبان هنا عن أوصافهم التي صاروا بها ظالمين، فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾ [هود:١٩]:

الصِّفَةُ الأولى: كَوْنُهُمْ صَادِّينَ عَنْ سَبِيلِ اللَّه مَانِعِينَ عَنْ مُتَابَعَةِ الْحَق، وسبيل الله هي سبيل الرسل التي دعوا الناس إليها، فصد عنها هؤلاء الظالمون، وصدوا غيرهم، فصاروا أئمة يدعون إلى النار.

وَالصِّفَةُ الثانية: سَعْيُهُمْ فِي إِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ، وَتَعْوِيجِ الدلائل المستقيمة، واجتهادهم في ميل هذه السبيل وتشييئها لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيصير الحق لديهم قبيحاً، والباطل حسناً.

وَالصِّفَةُ الثالثة: كَوْنُهُمْ كَافِرِين بالبعث والدار الآخرة[(٢)].

قال أبو الليث: «يصرفون الناس عن دين الإسلام ويطلبون بملة الإسلام زيفاً، وَينكرون البعث»[(٣)].

ثم بيَّن الله تعالى قدر هؤلاء الظالمين وحقارتهم وأنَّ أمرهم ليس معجزاً لله، فلو شاء لأخذهم بالعذاب في الدنيا، ولن يجدوا لهم من أمر الله ولياً ولا نصيراً.

---

(١) صحيح البخاري (٨٦٢/٢) رقم (٢٣٠٩) كتاب المظالم، باب قول الله تعالى ﴿ **أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾، وصحيح مسلم (١٠٥/٨) رقم (٧١١٥) كتاب التوبة، باب النجوى.

(٢) انظر : تفسير الرازي (٣٣٣/١٧)، وتفسير السعدي (٣٧٩/١).

(٣) بحر العلوم (١٤٤/٢).

﴿**أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء**﴾ [هود:٢٠]

قال الرازي: «وَمَعنَى مُعجزينَ في الأَرض: أَي: لَا يُمكنُهُم أَن يَهرُبُوا من عَذَابنَا، فَإِنَّ هَرَبَ العَبد من عَذَاب اللَّه مُحَالٌ؛ لأَنَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى قَادرٌ عَلَى جَميع المُمكنَات، ولَا تَتَفَاوَتُ قُدرَتُهُ بالبُعد وَالقُرب وَالقُوَّة وَالضَّعف. وَالمَقصُودُ أَنَّ قَولَهُ: ﴿**أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ دلَّ عَلَى أَنَّهُم لَا قُدرَةَ لَهُم عَلَى الفرَار، وَقَولُهُ: ﴿**وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء**﴾ هُوَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَقدرُ عَلَى تَخليصهم من ذَلكَ العَذَاب، فَجَمَعَ تَعَالَى بَينَ مَا يَرجعُ إِلَيهم وَبَينَ مَا يَرجعُ إِلَى غَيرهم وَبَيَّنَ بذَلكَ انقطَاعَ حيَلهم في الخَلَاص من عَذَاب الدُّنيَا وَالآخرَة »[1].

مضاعفة العذاب لهؤلاء الظالمين:

بعد أن بيَّن الله ﷻ عظم الجرم الذي اقترفه هؤلاء، وأوصافهم المنكرة التي اتصفوا بها، وضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم، ذكر الجزاء المناسب لتلك الأفعال الشنيعة ألا وهو مضاعفة العذاب وزيادة العقاب جزاء على ضلالهم وإضلالهم، فهم لم يكونوا ضالين في أنفسهم بل كانوا داعين إلى إضلال غيرهم، ولذلك وُصفوا بأنهم: ﴿**الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً**﴾ [هود: ١٩][2].

قال تعالى: ﴿**يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ**﴾ [هود:٢٠]

قال الرازي: «وَالْأَصْوَبُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ مَعَ ضَلَالِهِمُ الشَّدِيد، سَعَوْا في الْإِضْلَال وَمَنْع النَّاس عَن الدّين الْحَقّ، فَلهَذَا الْمَعْنَى حَصَلَ هَذَا التَّضْعيفُ عَلَيْهِمْ »[3].

---

(١) تفسير الرازي (٣٣٣/١٧).

(٢) انظر: بحر العلوم لأبي الليث (١٤٤/٢)، ومعالم التنزيل للبغوي (٤٣٣/٢).

(٣) تفسير الرازي (٣٣٣/١٧).

وقال الأمين الشنقيطي: «بَيَّنَ تَعَالَى في هَذه الآيَة الكَريمَة: أَنَّ الكُفَّارَ الَّذينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَن سَبيل اللَّه وَيَبغُونَهَا عوَجًا يُضَاعَفُ لَهُمُ العَذَابُ يَومَ القيَامَة؛ لأَنَّهُم يُعَذَّبُونَ عَلَى ضَلَالهم، وَيُعَذَّبُونَ أَيضاً عَلَى إضلَالهم غَيرَهُم، كَمَا أَوضَحَهُ تَعَالَى بقَوله: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ**﴾ [النحل:٨٨] [(١)]. وَبَيَّنَ في مَوضع آخَرَ أَنَّ العَذَابَ يُضَاعَفُ للأَتبَاع وَالمَتبُوعينَ، وَهُوَ قَولُهُ في الأَعرَاف: ﴿**حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ**﴾[(٢)] [الأعراف:٣٨][(٣)].

وقوله تعالى ﴿**مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ**﴾ [هود:٢٠] معناه: أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطيعُونَ أَنْ يَسْمَعُوا الْحَقَّ سَمَاعَ مُنْتَفعٍ، وَلَا أَنْ يُبْصرُوهُ إبْصَارَ مُهْتَد؛ لاشْتغَالهمْ بالْكُفْر الَّذي كَانُوا عَلَيْه مُقيمينَ عَن اسْتعْمَال جَوَارحهمْ في طَاعَة اللَّه تَعَالَى، وَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ.

وهذا اختيار ابن جرير الطبري ونقله عن ابن عباس وقتادة[(٤)].

وَيَدُلُّ لهذا قوله تَعَالَى: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقيل : إِنَّ عَدَمَ الاستطَاعَة المَذكُورَ في الآيَة إنَّمَا هُوَ للخَتم الَّذي خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبهم وَأَسمَاعهم، وَالغشَاوَة الَّتي جَعَلَ عَلَى أَبصَارهم.

---

(١) سيأتي تفسيرها قريباً.

(٢) سبق تفسيرها في المبحث الثالث.

(٣) أضواء البيان (١٧٥/٢).

(٤) تفسير الطبري (٢٨٦/١٥).

وساق الأمين الشنقيطي أقوالاً أخرى، وقال بعد أن ذكر الأقوال: وَقَد قَدَّمنَا في تَرجمَة هَذَا الكتَاب المُبَارَك: أَنَّ الآيَةَ الكَريمَةَ قَد تَكُونُ فيهَا أَقوَالٌ، وكُلُّهَا يَشهَدُ لَهُ قُرآنٌ فَنَذكُرُ الجَميعَ، وَالعلمُ عندَ اللَّه تَعَالَى[1].

خسارة الصادين عن سبيل الله:

نسبَ اللهُ ﷻ إلى هؤلاء الظالمين الضالين المضلين الخسار والبوار، فقال تعالى: ﴿ **أُولَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ**﴾ [هود: ٢١-٢٢].

وَالمَعنَى: أَنَّهُم لَمَّا بَاعُوا الدّينَ بالدُّنيَا فَقَد خَسرُوا، لأَنَّهُم أَعطَوُا الشَّريفَ، وَرَضُوا بأَخذ الخَسيس، وَهَذَا عَينُ الخُسرَان في الدُّنيَا ثُمَّ في الآخرَة، فَهَذَا الخَسيسُ يَضيعُ وَيَهلَكُ وَلَا يَبقَى منهُ أَثَرٌ، وَهُوَ المُرَادُ بقَوله: وَضَلَّ عَنهُم مَا كانُوا يَفتَرُونَ.

و ﴿لاجرم﴾ بمنزلة «لابد ولا محالة»، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً[2].

قال الزمخشري: «اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم مالا خسران أعظم منه، وهو أنهم ﴿خسروا أنفسهم وَضَلَّ عَنهُم﴾ وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ﴿ما كانُوا يَفتَرُونَ﴾ من الآلهة وشفاعتها ﴿لا جَرَمَ﴾ فُسِّر في مكان آخر ﴿هُمُ الأَخسَرُونَ﴾ لا ترى أحداً أبين خساراناً منهم»[3].

وقال ابن عطية: «حصر الخسار فيهم بل جعل لهم منه أشده لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب نستجير بالله من حالهم»[4].

*****

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (١٧٦/٢).
(٢) انظر: الرازي (٣٣٣/١٧).
(٣) الكشاف (٣٨٦/٢).
(٤) المحرر (١٦١/٣).

وقال الله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ** ﴾ [النحل: ٨٨].

لقد كفروا وكذَّبوا بآيات الله، وحاربوا رسله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال؛ فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله(١).

قال الزمخشري: «الَّذِينَ كَفَرُوا في أنفسهم، وحملوا غيرهم على الكفر: يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم»(٢).

وقال الرازي: «وَقَولُهُ: ﴿**زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ**﴾ [النحل: ٨٨] فَالمَعنَى: أَنَّهُم زَادُوا عَلَى كُفرهم صَدَّ غَيرهم عَن الإيمَان، فَهُم في الحَقيقَة ازدَادُوا كُفراً عَلَى كُفر، فَلَا جَرَمَ يَزيدُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَذَاباً على عَذَاب، وَأَيضاً أَتبَاعُهُم إِنَّمَا اقتَدَوا بهم في الكُفر، فَوَجَبَ أَن يَحصُلَ لَهُم مثلُ عقَاب أَتبَاعهم لقَوله تعالى: ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ** ﴾ [العَنكَبُوت: ١٣] وَلقَوله عَلَيهِ السَّلَامُ: ((مَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيهِ وِزرُهَا وَوِزرُ مَن عَمِلَ بِهَا إِلَى يَومِ القِيَامَةِ))(٣).

ثم قال تَعَالَى: ﴿**بِما كانُوا يُفسِدُونَ**﴾ أَي: هَذِهِ الزِّيَادَةُ مِنَ العَذَابِ إِنَّمَا حَصَلَت مُعَلَّلَةً بِذَلِكَ الصَّدِّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَن دَعَا غَيرَهُ إِلَى الكُفرِ وَالضَّلَالِ فَقَد عَظُمَ عَذَابُهُ، فَكَذَلِكَ إِذَا دَعَا إِلَى الدِّينِ وَاليَقِينِ، فَقَد عَظُمَ قَدرُهُ عِندَ الله تعالى والله أعلم(٤).

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٤٤٦/١).

(٢) الكشاف (٦٢٧/٢).

(٣) تفسير الرازي (٢٥٧/٢٠)، والحديث أخرجه أحمد في المسند (٣٨٧/٥) والبزار في مسنده (٣٦٦/٧)، والحاكم في المستدرك (٥١٦/٢)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٧/١) وقال: رجاله رجال الصحيح إلا أباعبيدة بن حذيفة، وقد وثقه ابن حبان.

(٤) انظر: محاسن التأويل للقاسمي (٤٠١/٦).

وفي الآية دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿**لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٨][1].

وخلاصة ذلك: أنهم يعذبون عذابين: عذاباً على الكفر، وعذاباً على الإضلال وصدِّ الناس عن اتباع الحق.

*****

(١) انظر: تفسير المراغي (١٢٧/١٤).

المبحث الخامس

الوعيد بمضاعفة العذاب

المطلب الأول

الوعيد بمضاعفة العذاب للنبي ﷺ

قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً *وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ [الإسراء: ٧٣ – ٧٥].

يخبر تعالى في هذه الآيات الكريمات عن عصمته وتثبيته وتأييده لرسوله ﷺ، وحمايته له من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، فلا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومظهر دينه ولو كره الكافرون.

هذا وقد وردت عدة أقوال في سبب نزول الآيات السابقة وما هو الأمر الذي كاد أن يفتن به النبي ﷺ؟

فقيل: هو الإلمام بالآلهة، لأن المشركين دعوه إلى ذلك، فهم به رسول الله ﷺ، وروي في ذلك حديث مرسل عن سعيد بن جبير.

وقيل: إنما كان ذلك أن رسول الله ﷺ هم أن ينظر قوماً بإسلامهم إلى مدة سألوه الإنظار إليها وهم ثقيف، وروي في ذلك حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: هو قول أكابر قريش للنبي ﷺ: اطرد عنَّا هؤلاء الموالي حتى نجلس

معك ونسمع منك فهمَّ بذلك حتى نُهي عنه.

والمرويات في هذا كلها لاتسلم من ضعف ومقال[1].

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن نبيّه ﷺ، أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله، وجائز أن يكون ذلك كان ما ذكر عنهم من ذكر أنهم دعوه أن يمسّ آلهتهم، ويلمّ بها، وجائز أن يكون كان ذلك ما ذُكر عن ابن عباس من أمر ثقيف، ومسألتهم إياه ما سألوه مما ذكرنا، وجائز أن يكون غير ذلك، ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أيّ ذلك كان، والاختلاف فيه موجود على ما ذكرنا، فلا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره، حتى يأتي خبر يجب التسليم له ببيان ما عُني بذلك منه»[2].

وعلى هذا فمعنى الآيات: أي: إنَّ الشأنَ أنهم قاربوا أن يفتنوك أي: يخدعوك فاتنين لك ﴿**عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا**﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا ﴿**لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ**﴾ لتتقوَّل علينا غيرَ الذي أوحينا إليك ﴿**وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً**﴾ أي: لو اتبعت أهواءَهم لكنتَ لهم حبيباً وصفياً[3].

قال الشنقيطي: «ومعنى الآية الكريمة: أن الكفار كادوا يفتنونه أي: قاربوا ذلك، ومعنى يفتنونك: يزلونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره مما لم نوحه إليك.

قال بعض أهل العلم: قاربوا ذلك في ظنهم لا فيما نفس الأمر.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢٩/١٥)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٩٩/١٠)، والدر المنثور (٣٧٧/٥).
(٢) تفسير الطبري (١٣١/١٥).
(٣) انظر: تفسير أبي السعود (١٨٨/٥)، وتفسير السعدي (٤٦٤/١).

وقيل: معنى ذلك أنه خطر في قلبه ﷺ أن يوافقهم في بعض ما أحبوا ليجرهم إلى الإسلام لشدة حرصه على إسلامهم.

وبيّن في موضع آخر: أنهم طلبوا منه الإتيان بغير ما أوحي إليه، وأنه امتنع أشد الامتناع وقال لهم: إنه لا يمكنه أن يأتي بشيء من تلقاء نفسه، بل يتبع ما أوحى إليه ربه، وذلك في قوله: ﴿**قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [يونس:١٥][1].

ثم يمتن الله عز وجل على نبيه ﷺ بالتثبيت أمام تلك المحاولات الفاتنة فيقول: ﴿**وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء:٧٤]

أي: ﴿**وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ**﴾ على الحق بعصمتنا إياك ﴿ **لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ**﴾ أي: تميل إليهم ﴿**شَيْئاً قَلِيلاً**﴾ أي: ركوناً قليلاً[2].

قال ابن عاشور: « وهذه منّة أخرى ومقام آخر من مقام رسول الله تجاه المشركين. ويجوز أن يكون مِن تكملة ما قبله فيكون الركون إليهم ركوناً فيما سألوه منه على نحو ما ساقه المفسرون من الأخبار المتقدمة، و «لولا» حرف امتناع لوجود، أي: يقتضي امتناعاً لوجود، أي: يقتضي امتناع جوابه لوجود شرطه، أي: بسبب وجود شرطه. والتثبيت: جعل الشيء ثابتاً، أي متمكناً من مكانه غير مقلقل ولا مقلوع، وهو مستعار للبقاء على حاله غير متغير، والمراد تثبيت فهمه ورأيه، فالمعنى: ولولا أن ثبتنا رأيك فأقررناه على ما كان عليه في معاملة المشركين

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (١٧٨/٣).
(٢) انظر: تفسير الرازي (١٠٠/١٠).

لقاربت أن تركن إليهم»[1].

ويتضح من الآية غاية الوضوح براءة نبينا ﷺ من مقاربة الركون إلى الكفار، فضلاً عن نفس الركون.

قال ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريف للأمة، لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شئ من أحكام الله وشرائعه»[2].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة أوضحت غاية الإيضاح براءة نبينا ﷺ من مقاربة الركون إلى الكفار، فضلاً عن نفس الركون. لأن ﴿**وَلَوْلاَ**﴾ حرف امتناع لوجود. فمقاربة الركون منعتها ﴿**وَلَوْلاَ**﴾ الامتناعيه لوجود التثبيت من الله جل وعلا لأكرم خلقه ﷺ، فصح يقيناً انتفاء مقاربة الركون فضلاً عن الركون نفسه، وهذه الآية تبين ما قبلها، وأنه لم يقارب الركون إليهم البتة؛ لأن قوله: ﴿ **لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً**﴾ أي: قاربت تركن إليهم هو عين الممنوع بـــ ﴿**وَلَوْلاَ**﴾ الامتناعية كما ترى، ومعنى﴿ **تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ**﴾: تميل إليهم »[3].

الوعيد بالمضاعفة:

لما ذكر الله منته وفضله على نبيه ومصطفاه محمد ﷺ بالثبات أمام ما كان الكفار يريدون استمالته إليه، وعصمته من الوقوع في براثن فتنتهم، ذكر سبحانه – هنا – ما كان سيترتب على الركون إليهم لو حصل منه أدنى ركنة إليهم فقال تعالى ﴿**إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ** ﴾ [الإسراء:٧٥] أي: لضاعفنا عليك العذاب في الدنيا وضاعفنا عليك العذاب في الآخرة، وعذبناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة.

---

(١) التحرير والتنوير (١٧٤/١٥).

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٧٩/٣).

(٣) أضواء البيان (١٧٩/٣).

قال ابن عباس: « قوله ﴿**إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ**﴾ [الإسراء: ٧٥] يعني: ضعف عذاب الدنيا والآخرة »[١].

وقال بعض المفسرين: المراد بضعف عذاب الممات: العذاب المضاعف في القبر والمراد بضعف الحياة: العذاب المضاعف في الآخرة بعد حياة البعث[٢].

قال الشنقيطي: «والآية تشمل الجميع »[٣].

والسبب فى تضعيف العذاب أن الخطأ يعظم بمقدار عظم صاحبه، ويصغر بمقدار صغره، والرسول ﷺ هو أعظم الخلق على الإطلاق، لذا توعده الله – تعالى – بمضاعفة العذاب لو ركن إلى المشركين أدنى ركون، ورحم الله القائل:

وكبائر الرجل الصغير صغائر وصغائر الرجل الكبير كبائر[٤]

قال الرازي: «السبب في تضعيف هذا العذاب أن أقسام نعم الله تعالى في حق الأنبياء عليهم السلام أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر ونظيره قوله تعالى: ﴿**يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**﴾ [الأحزاب: ٣٠] »[٥].

وقال الزمخشري: « وفي ذكر الكيدودة وتعليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل بيِّن على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته »[٦].

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن عباس في تفسيره (١٣١/١٥).

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (٦٤٠/٢)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٠١/١٠)، والفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب لابن معمَّر (٢٤٩/٣).

(٣) أضواء البيان (١٧٩/٣).

(٤) انظر: فيض القدير للمناوي (٣٧٣/٦)، والفواكه العذاب لابن معمَّر (٢٤٩/٣)، وأضواء البيان (١٧٩/٣).

(٥) تفسير الرازي (١٨/٢١)، وسيأتي تفسير الآية في المطلب الآتي.

(٦) الكشاف (٦٤٠/٢).

وختم اللهُ عزَّ وجلَّ الآية بقوله: ﴿**ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً**﴾ [الإسراء: ٧٥]: أي: ناصراً ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر، ومن البشر فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة[١].

*****

(١) انظر: تفسير السعدي (١/٤٦٤).

المطلب الثاني

الوعيد بمضاعفة العذاب لأمهات المؤمنين رضوان اللَّه عليهنَّ

لقد أكرم الله زوجات النبي ﷺ ورفع منزلتهن –رضوان الله عليهن أجمعين– عندما شرفهنَّ بالاقتران به وأعلى قدرهن بوصفهن بأمهات المؤمنين حيث قال تعالى ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ [الأحزاب:٦] وصرح القرآن العظيم بهذا الشرف عندما ذكر بأن هؤلاء النسوة لسن كبقية النساء فقال تعالى ﴿**يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء** ﴾ [الأحزاب:٣٢][1].

وأمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يخيرهنَّ بين الحياة الدنيا وزينتها من لذيذ الطعام والشراب وجميل الثياب وحلي الزينة ووافر ذلك كله ويطلقهنَّ، أو يردن رضا الله ورسوله والجنة في الآخرة فقال تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً**﴾ [الأحزاب:٢٨– ٢٩].

---

(١) أزواجه ﷺ ورضي الله عنهنَّ أولاهنَّ خديجة بنت خويلد، ثم تزوج بعد موتها سودة بنت زمعة، ثم تزوج بعدها أم عبد الله عائشة الصدِّيقة بنت الصدِّيق، ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، ثم تزوج زينب بنت خزيمة، ثم تزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية، وتزوج صلى الله عليه وسلم جويرية بنت الحارث، ثم تزوج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وتزوج صفية بنت حيي بن أخطب، ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وهي آخر من تزوج بها.

قال ابن قيم الجوزية: ولا خلاف أنه ﷺ توفي عن تسع، وكان يقسم منهنَّ لثمان: عائشة، وحفصة، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وصفية، وأم حبيبة، وميمونة، وسودة، وجويرية.

زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (١/١١٠).

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: ((لما أُمِر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك. قالت: وقد عَلم أن أبوَيّ لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: إن الله جل ثناؤه قال ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً**﴾ [الأحزاب: ٢٨ – ٢٩] قالت: فقلتُ: ففي أيِّ هذا أستأمر أبوَيَّ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت))[(١)].

قال ابن كثير: « هذا أمر من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه بأن يخير نساءه بين أن يفارقهنَّ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهنَّ عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهنَّ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، فجمع الله لهنَّ بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة »[(٢)].

ولما اخترنَ رضوان الله عليهنَّ الباقي على الفاني اخترنَ اللهَ وسولَه والدارَ الآخرة، كافأهنَّ اللهُ عز وجل بمنع النبي ﷺ من أن يتزوج بعد هؤلاء التسعة اللاتي اخترنه إكراماً لهنَّ وتقديراً؛ فقال تعالى: ﴿**لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٨٧٣/٢) رقم (٢٣٣٦) كتاب المظالم، باب الغرفة والعُلِّيَّة المشرفة في السطوح وغيرها، وفي (١٧٩٦/٤) رقم (٤٥٠٧) كتاب التفسير، باب قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٢٨]. وأخرجه مسلم في صحيحه (١١٠٣/٢) رقم (١٤٧٥) كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير أمرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٨١/٣).

رَّقِيباً﴾ [الأحزاب: ٥٢].

قال ابن كثير: «ذكر غير واحد من العلماء -كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم- أنَّ هذه الآية نزلت مجازاةً لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهنَّ على حسن صنيعهنَّ في اختيارهنَّ الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهنَّ رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية، فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن الله قصره عليهنَّ، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهنَّ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهنَّ ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حجر عليه فيهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنَّة للرسول ﷺ عليهن»[1].

الوعيد بالمضاعفة:

من أجل المحافظة على هذه المكانة السامقة لهؤلاء النسوة العظيمات زوجات النبي ﷺ، واستمراراً لذلك الشرف الذي حظين به من رب العباد، وحتى لا تخدش هذه المكانة بما يغض من قدرها ويخل ولو بشيء يسير من مكانتها، خاطبهن الله جل وعلا قائلاً:

﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ [الأحزاب:٣٠]

وحتى في هذا الخطاب التحذيري ينوه القرآن بشأنهنَّ ومنزلتهنَّ بقوله **﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ﴾**.

قال الألوسي: «قوله **﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ﴾** تلوين للخطاب وتوجيه له إليهن لإظهار الاعتناء بنصحهن، ونداؤهن ههنا وفيما بعد بالإضافة إليه عليه الصلاة والسلام

(١) المصدر السابق (٥٠٣/٣).

لأنها التي يدور عليها ما يرد عليهن من الأحكام، واعتبار كونهن نساء في الموضعين أبلغ من اعتبار كونهن أزواجاً كما لا يخفى على المتأمل»[1].

وقال ابن عاشور: «نَادَاهُنّ بوصف «نساء النبي» ليعلَمنَ أن ما سيُلقَى إليهنَّ خبر يناسب علوّ أقدارهنّ »[2].

والفاحشة: المعصية، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ [الأعراف: ٣٣] وكلما وردت الفاحشة في القرآن نكرة فهي المعصية وإذا وردت معرفة فهي الزنا ونحوه.

والمبيِّنة: بصيغة اسم الفاعل مبالغة في بيان كونها فاحشة ووضوحه حتى كأنها تبيِّن نفسها.

ومعنى مضاعفة العذاب: أنه يكون ضعف عذاب أمثال تلك المعصية إذا صدرت من غيرهنّ، وأريد: عذاب الآخرة[3].

اختلاف المفسرين في المراد بالفاحشة هنا:

اختلف المفسرون في ذلك على قولين:

- القول الأول: أن المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.
- والقول الثاني: أن المراد بالفاحشة هنا المعاصي.

قال ابن كثير: «وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾

(١) روح المعاني (١٨٤/٢١).
(٢) التحرير والتنوير (٣١٨/٢١).
(٣) انظر: المصدر السابق (٣٢٠/٢١).

[الزمر: ٦٥]، وكقوله: ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿**قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ**﴾ [الزخرف: ٨١]، ﴿**لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ [الزمر:٤]»[(١)].

الرد على مَن فسَّر الفاحشة هنا بالزنا:

القول بأنَّ المراد بالفاحشة هنا الزنا قول مردود، إذ أن الله عز وجل عصم نساء الأنبياء عليهم السلام وعلى رأسهم إمامهم محمد ﷺ من الوقوع في الزنا، ثم إن الفاحشة وصفت هنا بأنها مبينة، والزنا مما يتستر به.

قال الزمخشري: «الفاحشة: السيئة البليغة في القبح وهي الكبيرة، والمبينة: الظاهرة فحشها، والمراد كل ما اقترفن من الكبائر، وقيل: هي عصيانهن رسول الله ﷺ ونشوزهنّ، وطلبهن منه ما يشق عليه أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لأجله وقيل: الزنا، والله عاصم رسوله من ذلك»[(٢)].

وقال ابن عطية: «وقال قوم: « الفاحشة» إذا وردت معرفة فهي الزنا واللواط، وإذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي وكل ما يستفحش، وإذا وردت موصوفة بالبيان فهي عقوق الزوج وفساد عشرته، ولذلك يصفها بالبيان إذ لا يمكن سترها، والزنا وغيره هو مما يتستر به ولا يكون مبيناً»[(٣)].

وفسَّر أبوحيان الفاحشة بالكبيرة من المعاصي، قال: «ولا يتوهم أنها الزنا، لعصمة رسول الله ﷺ، من ذلك، ولأنه وصفها بالتبيين والزنا مما يتستر به، وينبغي

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٨٢).
(٢) الكشاف (٣/٥٤٤).
(٣) المحرر الوجيز (٤/٣٨١).

أن تحمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته»[1].

سبب مضاعفة العذاب:

لما كان لنساء النبي ﷺ تلك المكانة السامية التي تبوأنها، والمنزلة العلية التي تربعن على عرشها ناسب أن تضاعف لهن العقوبة لو افترض وقوع معصية منهن، وتلك تبعة المكان الكريم الذي هن فيه، كيف لا؟ وهن أزواج رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين، وهذه الصفة وتلك كلتاهما ترتبان عليهن واجبات ثقيلة، وتعصمانهن كذلك من مقارفة الفاحشة. فإذا فرض وقارفت واحدة منهن فاحشة مبينة واضحة لاخفاء فيها، كانت مستحقة لضعفين من العذاب.

وهكذا كلما عظمت مكانة الشخص وعلت كان الذنب منه أعظم، والخطيئة أشد، فالعالم ليس كالجاهل، والحر ليس كالعبد، والنساء اللاتي يمثلن عرض رسول الله ﷺ لسن كغيرهن.

روي عن زين العابدين رحمه الله أنه قال له رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم فغضب وقال: «نحن أحرى أن يجري فينا ما أجرى الله تعالى في أزواج النبي ﷺ من أن نكون كما تقول، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ولمسيئتنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتي تليها»[2].

قال الزمخشري: «وإنما ضوعف عذابهنّ لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهنّ وأقبح؛ لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وزيادة النعمة على العاصي من المعصي، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ ولا على أحد منهنّ مثل ما لله عليهن من النعمة، والجزاء يتبع الفعل، وكون الجزاء عقاباً

(١) البحر المحيط (٧/٢٢٠).

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي(٢١/١٨٤).

يتبع كون الفعل قبيحاً، فمتى ازداد قبحاً. ازداد عقابه شدّة، ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم: أشدّ منه للعاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالم أقبح، ولذلك فضل حدّ الأحرار على حد العبيد، حتى أن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون الرجم على الكافر»[1].

فضل أمهات المؤمنين من خلال الآية:

دلت الآية الكريمة على فضل أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، ولولا منزلتهن العظيمة بين نساء العالمين لما حذرن من مضاعفة العذاب، إذ العذاب لايضاعف إلا لمن علت منزلته فكان الذنب منه أعظم لما كانت مكانته أعظم كما سبق بيانه آنفاً.

قال مقاتل: «وتضعيف عقوبتهن على المعصية لشرفهنّ كتضعيف عقوبة الحرة على الأمة، وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن؛ وفيه إشارة إلى أنهن أشرف نساء العالمين»[2].

وختم اللهُ عز وجل الآية بقوله: ﴿**وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً**﴾ [الأحزاب:٣٠] أي: لا يمنعُه من التَّضعيفِ كونُهنَّ نساءَ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بل يدعُوه إليهِ لمراعاةِ حقِّهِ، وهذا إيذان بأن كونهن نساء النبي ﷺ ليس بمغن عنهن شيئاً، وكيف يغني عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب[3].

*****

(١) الكشاف (٣/٥٤٤).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل (٣/٥٢٧).

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري (٣/٥٤٤)، وتفسير أبي السعود (٧/١٠٢).

الخاتمة

أولاً: نتائج البحث:

في نهاية هذا البحث «كشف النقاب عن مضاعفة العذاب في آيات الكتاب» يمكن الخلوص إلى النتائج التالية:

١- هناك ذنوب ضوعف عليها وعلى مقترفيها العذاب والعقاب، وسبب المضاعفة هو زيادة جرمها، وتعدي ضررها، حيث لم يكتف فاعلوها بضلالهم في أنفسهم بل دعوا غيرهم إلى تلك الضلالة، فصار عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم، وضاعف الله عليهم العذاب.

٢- يُضاعَف العذاب لمن جمع بين الشرك والقتل العمد للنفس المحرمة والزنا، ونصَّ اللهُ تعالى على هذه الكبائر الثلاثة لأنها من أكبر الكبائر، فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

٣- يضاعف العذاب للسادة والرؤساء المتبوعين لضلالهم وإضلالهم، وللمرؤوسين الأتباع لضلالهم وتقليدهم وطاعتهم العمياء لأسيادهم.

٤- المنافقون هم ممن يضاعف لهم العذاب يوم القيامة، لخطورتهم التي تكمن في إظهارهم الإسلام وإبطانهم الكفر، وكيدهم للمسلمين، ولذلك هم ألدّ أعداء الإسلام على الإطلاق.

٥- صدّ الناس عن سبيل الله والسعي في إضلالهم، والاجتهاد في إمالتهم عن الهدى والنور، وتزيين الباطل لهم، كل ذلك مما يضاعف على فاعليه العذاب وتُزاد عليهم العقوبة بسببه، وذلك لأنهم جمعوا بين ضلالهم في أنفسهم وإضلالهم لغيرهم.

٦- وعيد الله عز وجل لنبيه وخليله ومصطفاه وأشرف خلقه محمد ﷺ بالعذاب دليل على علو مكانته وعظم مقداره، إذ أن الخطأ يعظم بمقدار عظم صاحبه ويصغر بمقدار صغره، والرسول ﷺ هو أعظم الخلق على الإطلاق، لذا توعده الله تعالى بمضاعفة العذاب لو ركن إلى المشركين أدنى ركون.

٧- وعيد الله عز وجل بالعذاب لنساء نبيه ﷺ ورضي الله عنهن دليل على المكانة السامية التي تبوأنها، والمنزلة العلية التي تربعن على عرشها، وذلك الوعيد تبعة المكان الكريم الذي هنَّ فيه، فهنَّ أزواج رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين.

ثانياً: التوصيات:

إنَّ من أهم ما يُوصَى به في خاتمة هذا البحث -في نظري- أمرين:

١) تذكير الناس بالأعمال التي يُضاعِفُ اللهُ عليها العذاب ويزيد بسببها العقوبة من خلال تفسير الآيات الدالة على مضاعفة العذاب وبيان معانيها ودلالاتها وتحذير الناس من تلك الأعمال والخصال.

٢) إجراء مزيد من الدراسات والبحوث حول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي دلَّت على مضاعفة العذاب.

*****

فهرس المراجع

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، أبو السعود العمادي محمد بن محمد، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ.
الإيمان، لأحمد عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م.
بحر العلوم، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت.
البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت.
التحرير والتنوير (تفسير ابن عاشور)، محمد الطاهر بن محمد ابن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن عيسى الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، المحقق: حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، مكتبة الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.
التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ.

تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠١م، الطبعة الأولى.
التوقيف عل مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف الحدادي المناوي، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المحقق: عبد الرحمن ابن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة.
جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
الجامع الصحيح (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل البخاري، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ - ١٩٨٧، حسب ترقيم فتح الباري.
الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
الدر المنثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) دار الفكر - بيروت.
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، تحقيق: على عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥ هـ.
زاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن علي الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤.
زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
الزهد، هَنَّاد بن السَّرِي الدارمي الكوفي، المحقق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦.

الزهد، وكيع بن الجراح ابن رؤاس الرؤاسي، حققه: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية١٣٩٤هـ.
العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي، علق عليه: محب الدين الخطيب رحمه الله، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب، حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر، تحقيق: عبدالسلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم، دار العاصمة، الطبعة الأولى.
فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الاولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ هـ.
الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي ابن عادل الدمشقى الحنبلى، دار النشر/دار الكتب العلمية ــ بيروت.

لسان العرب، محمد بن مكرم بن على ابن منظور الإفريقى، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ.
مجمل اللغة، أحمد بن فارس الرازي، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ.
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية لبنان الطبعة الأولى ١٤١٣هـ -١٩٩٣م.
مسند أبي عوانة، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، الناشر: دار المعرفة - بيروت.
معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت.
المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة.
مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، محمد بن عمر فخر الدين الرازى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.

*****

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدِّمة	٣٥١
أهمية البحث	٣٥١
خطة البحث	٣٥٣
التمهيد	٣٥٥
أولاً: تعريف المضاعفة	٣٥٥
ثانياً: تعريف العذاب	٣٥٥
المبحث الأول: مضاعفة العذاب لمن جمع بين الشرك والقتل والزنا	٣٥٦
المبحث الثاني: مضاعفة العذاب على الأتباع والمتبوعين	٣٦٢
المبحث الثالث: مضاعفة العذاب للمنافقين	٣٦٨
المبحث الرابع: مضاعفة العذاب للصادين عن سبيل الله	٣٧٢
المبحث الخامس: الوعيد بمضاعفة العذاب	٣٨٠
المطلب الأول: الوعيد بمضاعفة العذاب للنبي ﷺ	٣٨٠
المطلب الثاني: الوعيد بمضاعفة العذاب لأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.	٣٨٦
الخاتمة	٣٩٣
نتائج البحث	٣٩٣
التوصيات	٣٩٥
فهرس المراجع	٣٩٦
فهرس الموضوعات	٤٠٠

* * *

فهرس القسم الأول

الموضوع **الصفحة**

المقدِّمة ..... أ
الدولة وعدد الطلاب الدارسين بجامعة الأزهر.....د
أولاً: قسم التفسير وعلوم القرآن ٣
١- التعريف بكتاب التفسير الموضوعي لسور القرآن
د. أحمد عباس البدوي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن كلية الشريعة والدراسات الإسلامية –
جامعة الشارقة..... ٥-٤٢
٢- القيامة الكبرى مشاهد ووقائع، دروس وعبر (دراسة قرآنية)
د. عبد الرحمن محمد علي عويس
أستاذ التفسير المساعد بكلية أصول الدين جامعة الأزهر ٤٣-١٨٦
٣- خُلُق الرحمة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة
د . مريم عبد الحميد محمد إبراهيم..... ١٨٧-٢٩٨
٤- فتح القدير في تفسير سورة التكوير (دراسة تحليلية)
د. وليد عبد الحليم محمد زايد ٢٩٩-٣٤٨
٥- كشف النقاب عن مضاعفة العذاب في آيات الكتاب.
د . خالد بن عون العنزي ٣٤٩-٣٩٩